الأنساق المضمرة في السرد الروائي الرمضاني:
قراءة ثقافية لحضور شهر رمضان المبارك في بعض نماذج الرواية العربية

د. فهد إبراهيم البكر	د. وصال وليد الهويمل	د. محمود حسين العزازمة
أستاذ الأدب والنقد المشارك	أستاذ الأدب والنقد المساعد	أستاذ الأدب والنقد المشارك
جامعة حائل	جامعة الفجيرة	جامعة الفجيرة
المملكة العربية السعودية	الإمارات العربية المتحدة	الإمارات العربية المتحدة

الملّخص

ترمي هذه الورقة إلى دراسة " شهر رمضان في نماذج من الرواية العربيّة"، مستفيدة من أدوات المنهج الثقافي، وذلك لاستجلاء الأنساق الثقافيّة المخبوءة تحت ظاهر النص والاشتباك معه لاستخلاص ما تسلل إليه من أنساق، تجاوزت ظاهر التعبير إلى أعماق النص، كاشفةً عن فكر الكاتب القابع في نصوصه بوعي أو دون وعي.

ومن هنا فقد تناولت هذه الورقة مجموعة من الروايات العربيّة – ولا أسس بعينها لاختيارها – سوى أنّها تناولت بين طيّاتها شهر رمضان ضمن أنساق ثقافيّة مترسّخة داخل الروائي، فأخذت تطلّ برأسها في النص بين الفنيّة والأخرى، إذ نراه يصوّر العادات الاجتماعيّة والثقافيّة والدينيّة السائدة في مجتمعه إبّان شهر رمضان، كاجتماع العائلة، والدعوة إلى الإفطار، وليلة القدر وتأجيل ما هو سلبي لما بعد انقضاء الشهر، غير أنّ القارئ المتأمّل بالسرد يرى أبعاداً أخرى لذلك، ويستشف ممارسات قد تمسّ على أقل تقدير غاية الشهر الفضيل وروحانياته، وهي بلا شكّ أنساق ثقافيّة تتحصّن داخل النص، وتلفّ فكر الكاتب ووعيه؛ لذا تحاول الورقة إيقاظ تلك الأنساق والنبش عنها ومحاورتها.

ومما تجدر الإشارة إليه أننا تناولنا ظاهر النص الإيجابي، ومن ثم الغور في أعماق السرد واستبطان أنساقه الخفيّة التي تخترق صفاء الظاهر وجماله، سائرين بموقف وسطي يجمع بين الآراء القائلة بأن المنهج الثقافي يكشف عن النسق أيّاً كان، والآراء القائلة بأن كشف القبيح هو صلب النقد الثّقافيّ، وصميم جوهره. كما أنّ توضيح مثل هذه الأنساق القبيحة لا يعنى المس بقدسيّة الشّهر وحرمته؛ وإنّما تسليط الضوء على ما هو سلبي في الثقافة العربيّة، أملاً بتغييره كم قال الغذّامي، وردم حفر الخال والعوار.

الكلمات المفتاحيّة: النقد الثقافي، الرواية، العربيّة، شهر رمضان، النّسق.

Summary

The study of the study "Ramadan in Examples of the Arabic Novel", in order to clarify the cultural patterns, by using what is under the surface of the text and its superficiality, and the clash with a clash that reads a new reading, reading the surface of the expression, and tends towards the depths of the text, revealing the thought of the subordinate writer in his texts consciously or unconsciously.

Hence, this paper has dealt with a group of Arabic novels - and there are no grounds for selecting them specifically - except that they dealt with the month of Ramadan within the cultural patterns entrenched within the novelist, so it appears in the text between the artistic and the other, perhaps intentionally or without it, as we see it depicting social, cultural and religious customs prevailing in his society during the month of Ramadan, such as the family gathering, the call to breakfast, Laylat al-Qadr, and the postponement of what is negative until after the end of the month, but the contemplative reader sees other dimensions of this, and discerns practices that may at least affect the purpose and spirituality of the holy month, and they are undoubtedly Cultural patterns latent within the text, so the paper attempts to awaken these patterns, excavate them, and discuss them.

It should be noted that we dealt with the appearance of the positive text, and then delving into the depths of the narration and the introspection of its hidden patterns, a tributary that is different from its appearance, to take a middle position that combines the opinions that the cultural approach reveals the pattern, whatever it is, and the opinions that reveal the ugly is the core of his work and the core of his essence. Also, clarifying such ugly patterns does not mean violating its sanctity and sanctity. Rather, it is shedding light on what is negative that resides in Arab culture in the hope of changing it, as al-Ghudhami said.

Keywords: cultural criticism, Arabic novel, Ramadan, format.

قليلة هي الدراسات الأدبية والثقافية التي تتناول شهر رمضان المبارك، مع أن نماذج حضوره في التراث العربي كثيرة، بل إن نماذجه كثيرة في السرد الحديث أيضاً، وهذا ما يجعل فرصة دراسته من أي زاوية نقدية أمراً باعثاً على الاهتمام، والحق أن حضور (رمضان في الرواية العربية)، ميدان بحثي جديد وغزير؛ فهو موضوع سهل ممتنع، والذي يراه في بادئ الأمر يحسب أنه عنوانٌ جاذب ومواكب، ولكنه في الوقت نفسه صعبٌ وشاق.

ومن هنا سنتناول في هذه الورقة حضور رمضان في الرواية العربية من زاوية النقد الثقافي ولعلي أقسّم هذه الورقة إلى تمهيد، وثلاثة محاور، وخاتمة، فأما التمهيد فسيعرّف برمضان بين الأدب والنقد: جدلية الحضور والغياب، وأما المحاور الثلاثة فسوف ترتكز على الأنساق المضمرة في شهر رمضان،

وذلك من خلال استقباله، ثم بعض ظواهره ومتعلقاته، ثم بيان مآلاته ونهاياته ثم خاتمة الورقة، وستكون قراءتنا انطلاقاً من تصور النقد الثقافي الذي يبحث في ما وراء النص.

ويسعدنا أن نتناول موضوعاً بعنوان (رمضان في الرواية العربية: قراءة ثقافية في بعض النماذج)، والحق أن هذا الموضوع سهل ممتنع، فهو في ما يظهر عنوانٌ جاذب ومواكب، ولكنه في الوقت نفسه صعبٌ وشاق، ولا سيما إذا كان وقت إعداد الورقة ضيقاً كما حدث معي الآن.

ولعلنا أقسّم هذه الورقة إلى تمهيد، وثلاثة محاور، وخاتمة، فأما التمهيد فسيعرّف برمضان بين الأدب والنقد: جدلية الحضور والغياب، وأما المحاور الثلاثة فسوف ترتكز على الأنساق المضمرة في شهر رمضان، وذلك من خلال استقباله، ثم بعض ظواهره ومتعلقاته، ثم بيان مآلاته ونهاياته، ثم خاتمة الورقة، وستكون قراءتنا انطلاقاً من تصور النقد الثقافي الذي يبحث في ما وراء النص، كما أن المدونة يسيرة ليست بالكثيرة؛ وذلك بسبب ضيق الوقت، ومحدودية النماذج.

ونبدأ بتمهيد هذه الورقة حول:

(رمضان بين الأدب والنقد: جدلية الحضور والغياب):

فنقول بإيجاز بأن رمضان حضر كثيراً في الأدب، ولكنه غاب عن النقد، نقول ذلك بكل صراحة، وبكل وضوح، وحتى الذين تحدثوا عنه في عصرنا هذا، إنما انطلقوا من جمع المادة، لا نقدها، ولعلي أحيل هنا إلى كتاب مهم يعد من أوائل الكتب في العصر الحديث– في نظري – التي تناولت (رمضان في الأدب)، وهو كتاب الدكتور علي الجندي الذي سماه (رمضان في الأدب)، وهو مجموعة محاضرات ألقيت بمقر الجمعية الجغرافية المصرية، في مساء يوم الثلاثاء الموافق 10 مارس، عام 1959م، أي قبل ما ينوف عن ستين عاماً، وقد استهله بالحديث عن اشتقاق كلمة (رمضان)، وما قاله الشعراء في استقبال الهلال، وبعض أحوالهم مع هذا الشهر الكريم، بالإضافة إلى ذكر بعض الآثار والمظاهر.

غير أن الاهتمام بالشعر كان أكثر من النثر، فلم يحضر رمضان كثيراً إلا مع الشعراء، في حين ظل متوارياً عند الكتّاب، ومن يتأمل في النثر العربي يجده في استقبال رمضان تنوعاً، وإن لم يكن وافراً، وظهرت في هذا الباب بعض التهاني المفعمة بالروحانية، وعلى كل حال فقد كان أغلب الأدباء متفاوتين في استقبال هذا الشهر الكريم، مستبشرين فرحين، وإن رأينا منهم في الشعر من لم يكن كذلك، وكذا الحال في النثر أيضاً.

وليس هذا مقام استعراض وتفصيل، لكننا نود التنبيه إلى أن رمضان الذي حضر مع الأدباء في شعرهم ونثرهم، لم يكن ليتناول بالشرح، والتفصيل، أو الطرح، والتحليل، وهو الأمر الذي يجعلنا

نتساءل منذ القديم: أين النقد عن رصد جماليات الإبداع المواكب لرمضان؟! وهل يرى النقاد في هذا الصد والنأي مسوّغاً؟! لماذا مثلاً لم يعكف النقاد القدامى على التأليف في جمالية هذا الشهر وروحانيته، ولماذا لم يتوقفوا عند مظاهره ومتعلقاته؟! وحتى إن وجد شيء من ذلك مما غاب عنا، فلماذا يظل محدوداً.

هذه التساؤلات يمكن الإجابة عنها في مواضع أُخر، ليس هذا مجال كشفها، لكن طرح تلك الأسئلة كانَ مهماً في نظرنا؛ لأنه سيمهد الطريق للتعرف على ضرورة بحث موضوع كهذا، سواء أكان ذلك على مستوى الأدب القديم، أم الحديث، وسواء أكان ذلك على صعيد الشعر، أم على صعيد النثر.

ومع ذلك فعلينا أن نتخفف قليلاً في حكمنا وأن نقول: إن من أهم الأسباب التي بعّدت بين أدب رمضان ونقده هو أن هذا الأدب كان لا يرد مخصوصاً لذاته في أكثر الأحيان وإنما يأتي عارضاً أو في سياق عام، وهو ما يجعل الناقد يتناوله ضمن أغراضه السياقية الأهم، أو توجّس الأدباء من الخوض في غمار الدين كونه من التالوث المحرم، ومجانبة الرّمي بتهمة الإيديولوجيا التي تقوده إلى شعاب يصعب الخروج منها. ومع ذلك فإننا لا نعدم وجود نصوص إبداعية مستقلة تناولت رمضان في الشعر والنثر، وظلت بحاجة إلى تكثيف النقد من حولها.

إذن لا بد من تركيز الاهتمام على ثنائية الأدب والنقد في تناول رمضان؛ لأنه هذه الثنائيات هي التي سوف تفتح الباب مشرعاً على كثير من الغايات والجماليات، ولا بد أيضاً من وجود فلسفة إبداعية في هذا الصدد، أو ما يسميه الغربيون (الدِّيَالِكْتِيك) أي المذهب الجدلي الذي يقوم على تجاذب بين قطبين، أو نقطتين مختلفتين، أو على غرار ثنائيات: الخفاء والتجلّي، والحضور والغياب، والتذكر والنسيان، والسواد والبياض، والحياة والموت، والبقاء والرحيل، ونحوها من الثنائيات.

ولأن الحديث عن الأدب في رمضان أكثر ما يكون تناولاً في الشعر دون النثر، وفي القديم منه دون الحديث؛ فإننا سنبتعد عن الشعر قديمه وحديثه، كما سنأى عن النثر القديم، ونحاول تلمس رمضان في النثر الحديث، وتحديداً في الرواية دون غيرها، متطلعين إلى مقاربة هذه الفكرة من زاوية نقدية جديدة، وهي النقد الثقافي؛ لذلك سنحاول التطبيق على أبرز النماذج التي لاحت لنا متأثرة بهذا الشهر الفضيل، وسنتتبع ذلك من خلال الأنساق المضمرة التي يكشفها تعامل الروائيين مع بدايات رمضان، ونهاياته، وبعض مظاهره ومتعلقاته، ومعلوم أن الأنساق المضمرة كما يقول د. عبد الله الغذامي: "ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته، وأنماطه، وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي،

وما هو كذلك سواء بسواء، من حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي، وهو لذا معني بكشف لا الجمالي كما هو شأن النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي الجمالي"[1].

أولاً – الأنساق المضمرة لدى الروائيين في استقبال رمضان:

حين نطالع بعض الروايات العربية نجد حضور الشهر الكريم فيها متفاوتاً بين الاحتفاء به، والابتهاج بمقدمه، أو انتظاره والشوق إليه، أو الاستعداد له، والتغني به، وهي مظاهر تكشف عن جماليات متنوعة، لكنها قد تخفي وراءها شيئاً من الأنساق المضمرة التي تستتر وراء الجماليات، ففي رواية (خان الخليلي) لنجيب محفوظ يطالعنا نص استقبالي بامتياز، وذلك في مطالع الفصول الأولى من الرواية، حيث يقول:" **واقترب رمضان، فلم يعد يفصل بين هلاله وبين الطلوع سوى أيام قلائل، ولكن رمضان لا يأتي على غرة أبداً، وتسبقه عادة أهبة تليق بمكانته المقدسة، ولم تغفل أم أحمد عن ذلك، وكانت في الواقع المسؤولة الأولى عن جلال الشهر وجماله، فجعلت منه يوماً حديث الأسرة قائلةً: إنه شهر له حقوقه كما له واجباته، وكان قولها موجهاً لأحمد فأدرك مغزاه، وقال مدافعاً عن نفسه: رمضان له حقوقه ما في ذلك من شك..**"[2].

كما يكشف أيضاً عن نسق اجتماعي متأصّل في الشخصيّة العربيّة، يتمثّل بمركزيّة المرأة في بيتها، ومسؤوليتها نحو استقراره وبهجته، لا سيّما في شهر رمضان، وطقوسه المختلفة عن غيره، " فالأم "، لا تعطّل شيئاً من لوازمه، وتستقبله بفرح غامر يفوح عبيره على الأسرة بأكملها، فتنظهر وكأنّها تجدّد عهدها بالحياة، وترمم علاقتها بالأيّام.

وإذا ما نظرنا إلى الإطار الأقصى في هذه الصورة نجد أنّ النسق الظاهر هنا يتمركز حول إسناد المهام الكاملة للأم ومسؤوليتها الكليّة عن سعادة العائلة، وكأنّها وظيفة أنيطت بها وحدها، غير قابلة للمشاركة والتجزئة، وهذه مشاهدات حيّة نراها في كثير من مجتمعاتنا العربية التي تؤطر بالمرأة بهذا الدور، وتحتفظ بتلك الصورة منذ أزمان عديدة.

فالنسق الثقافي إذاً حاضرٌ في ذهن الروائي، يستمده من واقعه، ويتلقّفه من محيطه الاجتماعي، فينساب بنصّه الأدبي بوعي منه أو دون وعي، ولكنّه بالطبع إضافة نوعيّة للنص، تضفي عليه تشويقاً وجاذبيّة تجعلان القارئ يتفاعل معه، كأنّما يعيش هو الأحداث.

---

[1] النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله محمد الغذامي، ط/1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2010م، ص 87.

[2] خان الخليلي، نجيب محفوظ، ط/2، دار الشروق، القاهرة – مصر، 2007م، ص 75 – 76.

وتتجلى الأنساق المضمرة في هذا المقطع في النظر إلى هذا الشهر نظرة عادية كغيره من الشهور، وقد صرح الكاتب بعد هذا المقطع حين قال:" **فقالت الأم بلهجة دلت على عدم الارتياح: لا قطع الله لنا من عادة، فاستيقظ بخلُه وقال بشيء من الحدة: ليمضِ رمضان كما مضى غيره من الشهور..**"[1].

ويُكشف مثل هذا النسق من خلال الدلالة الضمنية للجملة الثقافية، فالنسق هو دلالة مضمرة، وكما يقول د. عبد الله الغذامي: "منكتبة ومنغرسة في الخطاب، مؤلفتها الثقافة، ومستهلكوها جماهير اللغة من كتّاب وقراء، والنسق هنا ذو طبيعة سردية يتحرك في حبكة متقنة؛ ولذا فهو خفي ومضمر، وقادر على الاختفاء دائماً"[2].

وحين نطالع رواية (سيرة حمى) لخالد اليوسف، وهي من الروايات الحديثة الصدور، في زمن جائحة كورونا، نجده يخفي بعض الأنساق المضمرة في هذه العبارة، حيث يقول: "**حدّثنا أنه حل عليهم شهر رمضان في السنة الأولى بعد الأربعين والأربعمائة والألف للهجرة النبوية، والخلق في حظر، والخروج من بيوتهم خطر؛ لهذا مُنع التجوال منذ ثلاثين ليلة خلت من شهر شعبان، وقبله عشرون ليلة من شهر رجب المحرم، الذي انتشر فيه الوباء، وأجمع الخلق على أنها الحمى الصينية ..**"[3].

فاستهلال الكاتب بشهر رمضان لم يكن استهلالاً جمالياً، وإنما كان يخفي خلفه مزيداً من الانزعاج الذي خلفّته جائحة كورونا، وما فيه من حظر، وخطر، وفي دلالة الأيام وطولها، وإجماع الناس عليها.

وإذا ما توسّعنا بالبحث أكثر، فقد يصحّ القول بأنّ ثمّة نسقاً سياسياً يخفيه النص خلفه، يتمثّل بثنائيّة الشعب والسلطة، يظهر ذلك من خلال قوله" الخلق في حظر.... مُنع التجوال..."، ولعلّ هذه الثنائيّة تكشف عن النسق السياسي العربي وتمثّلاته في مثل تلك المواقف، فصحيح أنّ العالم كلّه قد حُظر– والعالم العربي جزء منه – غير أنّ الإجراءات السياسيّة العربيّة بمثل هذه المواقف معروفة منذ القدم، ولها في تاريخنا العربي أمثلة، يستحضر منها الذهن طاعون عمواس المشهور.

أمّا الإشارة إلى المنع والحظر فتحمل في طيّاتها إلماحات إلى طقوس الشهر وبهجته، كانت قد أخمدتها تلك الإجراءات، وأطفأت شموع بريقها.

ومن هنا يمكن القول أنّ النسق السياسي حاضر في ذهن الكاتب، يؤرّخ من خلاله لمدة زمنيّة بالغة الصعوبة في حياة العالم، تدلّ عليها مفردات وتراكيب عدّة في النص مثل" أجمع الخلق، مُنع التجوال،

---

[1] خان الخليلي، نجيب محفوظ، ص 76.

[2] النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص 79.

[3] سيرة حمى، خالد أحمد اليوسف، ط/1، مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع، الدمام، 1442هـ/2021م، ص 115 – 116.

الحمى الصينية"، وهي مفردات ربما تكشف عن نسقٍ آخر هو النسق النفسي، وما يخفيه داخل الإنسان من استياء وألم؛ إثر المنع طيلة الشهر الفضيل، والحرمان من نسماته وعوالمه.

هذه الأنساق الثقافية المطمورة في السرد، تؤكد أنّ الكاتب رهين بيئته وأيديولوجيته مهما حاول التنكر لذلك والتَبرّؤ منه، تتكاتف عليه من سياقه الخارجيّ، لتبعث داخل نصه الإبداعي مشكلة هذه الأنساق الخفية التي يربط بينها انسجام فني محكم، لا تصدّع فيه.

وتقول رجاء الصانع في روايتها الشهيرة (بنات الرياض):" **اسمحوا لي أن أنتشلكم من أحزانكم بعد إيميلي السابق؛ لأبارك لكم هذا الأسبوع بمناسبة قرب حلول شهر رمضان المبارك، أعاده الله علينا وعلى المسلمين كافة، وأعاننا على صيامه وقيامه، أعتذر لكم عن إرسال الرسائل خلال هذا الشهر، وأعدكم بمتابعة قصص صديقاتي بعد انقضاء الشهر الفضيل، أعترف لكم مسبقاً بأنني سأشتاق إليكم، سأعود محمّلة برسائل خطيرة بعد رمضان بإذن الله، فانتظروني**"[1].

فخلف هذا النص الذي يستقبل رمضان تستتر جملة من الأنساق المضمرة التي لم يفصح عنها، وهي أنساق دلّت عليه أمارات استقبال الشهر الفضيل، فهو شهر عبادة، يتفرّغ الإنسان فيه لبذل المزيد من الطاعات، بعيداً عن ملهيات الدنيا؛ ولهذا نجد في النص اعتذاراً عن الاستمرار في إرسال الرسائل في هذا الشهر، وإرجائها إلى ما بعد انقضائه، بل إننا نقترب أكثر من وجود تلك الأنساق المضمرة حينما نتأمل جيداً في الاعتراف بالاشتياق، والتصريح بأن هناك رسائل ليس هذا وقت عرضها ونشرها، وبهذا تتجلى" حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي والحس النقدي"[2].

وخلف هذه الصورة النموذجيّة يقبع نسق سلوكي، يزمّله النص بملامح وديّة جميلة، غير أنّنا أمام شخصيّة يعلو فيها نسق الأنا على الآخر، فتبدو وكأنها الأفضل، وصاحبة المثل والأخلاق والآخر هو الضعيف المذنب، يُستشف هذا النسق من القول " أعدكم بمتابعة قصص صديقاتي... سأعود محمّلة برسائل خطيرة بعد رمضان"، فالسياق إذن يضمر رؤية رافضةً للواقع، تحاول تعرية مستوره، ورصد عوراته عبر تتبع قصص الصديقات وفضحها، فتبدو الشخصيّة كما لو أنها تتبنّى إصلاح الآخر والبوح باسمه ونقل تجاربه، تسير في المجتمع ناقدة مصلحة، تسبر جوّاه، وتسرد سلبيّته فيما هي لا شوائب فيها، ولا يشملها الأمر.

وعليه، فالنص كأنّه يأخذنا إلى نسق فكري هو" الأنا والآخر" حاول الكاتب توظيفه لدعم رؤية النص، والنهوض بها غير أنّه يخفي من زاوية أخرى ما يعتري الأنا من اعتداد بنفسها، وتميّزها عن الآخر

---

[1] بنات الرياض، رجاء عبد الله الصانع، ط/7، دار الساقي، بيروت – لبنان، 2007م، ص 222.

[2] النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله محمد الغذامي، ص 87.

أو السياق الجمعي الذي تعيش فيه، ولهذا فإن بعض الأحايين قد تكون" الدلالة الضمنيّة الجماليّة، هي التي تمرّر وتعزّز الدلالة المضمرة (النسقيّة) أو فعل النسق المدمّر. فالفخر مثلاً مدح للذات، ولكنّه يمرّر تحقير الآخر، وكذا الهجاء (عيوب الآخر) يمرّر مدح الذات"[1].

كما يمكن الكشف عن نسق ثقافي آخر، يتجلّى بنمط سلوكي وممارسات أخلاقيّة يُظهرها الفرد والجماعة في شهر رمضان المبارك، تتمثل بعجز الأشخاص وإخفاقهم روحيّاً في معالجة دواخلهم، وإلقاء براثن النفس الأمّارة بالسوء، يظهر هذا النسق من القول" أبارك لكم هذا الأسبوع بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك... وأعدكم بمتابعة قصص صديقاتي بعد انقضاء الشهر الفضيل" فإذاً ثمّة نيّة سابقة لاستكمال المنطوق الجافّ، ووضعه هدفاً مؤجّلاً لنهاية الشهر المبارك، وهو نمط سلوكي نراه في حياتنا اليوميّة، ومعايشتنا الواقع بكل أحواله، وإلاّ فالأصل أن يخرج المرء منه بروحٍ مختلفة، ويستقبله كذلك بنفس خالية مشرقة، يخبو فيها شعاع الغل والسوء، ويرتفع وهج الألفة والصفاء إلاّ أنّ ما نلحظه هنا تأثّر الكاتبة بمحيطها ومجتمعها، واستقاء فكرها ومعتقدها منه، حيث تبدو الدلالة الظاهرة جماليّة حسنة، وفيها من الاحترام للشهر، ولكنّ الدلالة المضمرة على النقيض تماماً من ذلك، فالتغيّر الروحي المنشود في هذا الشهر، نراه يذهب أدراج الرّياح.

ثانياً – الأنساق المضمرة لدى الروائيين في بعض مظاهر رمضان ومتعلقاته:

ونعني بذلك كل ما يرتبط برمضان في غير استقباله، أو توديعه، كأن يشار إلى أحد أيامه، وأهم مظاهره وهو الإفطار، على نحو ما نجده عند إحسان عبد القدوس في روايته (في بيتنا رجل) حيث افتتح الرواية قائلاً: "**أحد أيام شهر رمضان، والساعة الخامسة مساءً قبل الإفطار بساعة ونصف، وكان راقداً في فراشه بإحدى غرف مستشفى القصر العيني ..**"[2].

ويتناول الروائيون عادة الإفطار بوصفه أهم مرتكزات رمضان؛ إذ من خلاله تتجلى ثنائية الصوم والفطر، والإمساك وعدمه، وقد صورت رواية (في بيتنا رجل) كيف كانت سفرة الإفطار في البيئة المصرية في أدق تفاصيلها، ومن خلال ذلك نلحظ كيف يشتغل الكاتب على نسق التفاصيل الصغيرة لسفرة إفطار عادية، وهنا ندرك أنه ليس شرطاً أن يكشف النقد الثقافي عن القبحيات، أو المحظورات، أو المسكوت عنه؛ إذ قد نجد فيه عكس ذلك، حين يكشف لنا طبيعة الحياة، ويصورها في عرض متنه الروائي، وكأنها يمر بها مرورا سريعا، يقول مثلاً: "**كانت العائلة مجتمعة كعادتها عقب الإفطار**

---

[1] عزيز ماضي، شكري (2020). مناهج النقد الأدبي مقدمات. نصوص. تطبيقات، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ص 301.

[2] في بيتنا رجل، إحسان عبد القدوس، د. ط، دار أخبار اليوم، القاهرة، د.ت، ص 7.

في حجرة (القُعاد) والراديو يلقي إليهم أغانيه، كان الأب في جلبابه الأبيض الفضفاض، وفوق رأسه الطاقية الخفيفية التي لا يخلعها إلا ليضع مكانها الطربوش، وقد جلي على الأريكة .. وأمامه مائدة صغيرة، عليها كوب شاي فارغ .. وكانت الام الطيبة مكتنزة، وبين شفتيها ابتسامة هادئة كأنها قطعة من فمها، جالسة على الطرف الآخر من الأريكة، وبجانبها علبة الخياطة، وبين يديها مجموعة من الجوارب ترتق فيها"[1].

ويمكن أن نلمس بعض الأنساق الأخرى التي يريد أن يلامسها الكاتب في روايته هذه، كالاستماع إلى ما يشدو به الراديو بعد نهار مفعم بالعبادة، والروحانية، وكذلك جلوس الأب في جلبابه الأبيض الفضفاض، وطاقيته التي تومئ إلى خلوده للراحة بعد يوم حامٍ من الجهد والنشاط، وآثار الصيام.

وهي صورة تبدو وديّة لطيفة، غير أنّ نسقاً ثقافياً اجتماعياً يدور في باطنها، يتمثّل بنمطيّة الصورة للأسرة العربيّة وتقليديتها، فالأم تبدو بصورة ربة المنزل، وهي طيّبة ما دامت ناهضة بأعباء البيت وتدبيره. والأب رجل تقليديّ يبدو من هيئته وملابسه في حالة صمت مع الراديو والشاي، يخلد للراحة والنوم بعد ساعات الإفطار القليلة، إذ لا حوارات بينهما، ولا نقاشات، كلٌّ في شأن يغنيه، ولا من مبادر لفتح جلسة عائلية تشعلها الأحاديث والحوارات أو الأنشطة الرمضانيّة التي تحي الروحانيّة في الأسرة وتوثّق العلاقة أكثر، وهذه " إشارة ضمنيّة صادرة عن عالم الفنّ، مفادها أنّ أزمة الانسان/الحياة ليست مقصورة على طرف بعينه، وليست في الوقت ذاته نتاج طرف واحد دون الآخر ومن ثمّ فإنّ هذا المصير السلبي هو ناتج درامي أو بلغة علم السرد شخصيّة فنيّة تأتي في الظهور تالية بعد حزمة من الأفعال يقوم بأدائها عدد من شخصيات الحكي التي تسبقها في الظهور"[2].

ويمكن أن نجد في أحد فصول الرواية مثلاً إشارة إلى ظاهرة تفطير الصائمين، وهي ظاهرة يكتنفها نسقان: الكرم، والأجر، يقول مثلاً: "**وأطلت نوال من الباب، لم يعد باقياً على موعد الإفطار سوى نصف ساعة، وقالت وهي تتحرك في الغرفة كأن ليس فيها شخص غريب: بابا بيقول لكم اتفضلوا في أودة القُعاد (...) كان إفطاراً صامتاً حزيناً (...) وكان إفطاراً سريعاً ..**"[3].

وهي ظاهرة يكثفها نسقان: ديني واجتماعي يتمثّلان بالكرم وطلب الأجر، يبرزهما السرد الروائي عبر لغة محكيّة، تلقي على النص جماليّة وحيويّة، وتوهم بواقعيّته التي تشوّق القارئ، الأمر الذي يدعم

---

[1] في بيتنا رجل، إحسان عبد القدوس، ص 32.

[2] يحيى علي، أحمد (2020)، المبدع ورؤية العالم في الخطاب الروائي، ط1، دار راشد للنشر، الفجيرة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ص 175.

[3] نفسه، ص 76، 145.

بناء النص ويرفع فنيّته، وإن كان يطفو على السطح نسق آخر نفسي تفسّره عبارة " كان إفطاراً صامتاً حزيناً .. سريعاً "ممّا يشي بعلاقة مشوبة بين الأفراد، فظاهر السرد هو إفطار جماعيّ مبارك، ولكنّ عبارات كهذه تلمح إلى علاقة متناقضة، تشكّل شرخاً نفسيّاً بين أفراد الجماعة، وفضاءً مزدحماً بالصمت والحزن، ولا ندري إن كان هذا مؤشّر على توتر العلاقة الجمعيّة ومستوى الواقع المعيش بما فيه من مشاحنات مترسخّة، أبت المفارقة حتى في شهر التسامح.

ويبدو أنّ هذه المشاهدات الاجتماعيّة حاضرة بذهن الروائي ووعيه؛ لذا ألقت بظلالها على النص، وشكلت إفرازاتها جزءاً من تكوينه وبنائه سواء بقصد أو دون ذلك.

وإذا عدنا إلى نجيب محفوظ فإننا نجد في روايته (عصر الحب) حضوراً لرمضان ومتعلقاته، فمن ذلك إشارته إلى (مدفع الإفطار) في قوله:" ولم يبق على مدفع الإفطار إلا قليل، وعين تطعم القطط بيدها، وتؤلف بينها وبين ساعات الطعام، وساعات المؤانسة"[1]، ويقول في الرواية ذاتها في مقطع آخر:" **عقب الأذان غيّرت عين ريقها على عصير خشاف فاتر، ثم نهضت لتصلي المغرب، على حين جلست أم سيدة إلى المائدة بعد أن نزعت عنها الملاءة وهي تتمتم (لا حياء في الجوع) .. ومضى الإفطار في المضغ تتخلله كلمات عابرة..**"[2].

ولعلّ هذه العبارة " لا حياء في الجوع " قد تنطوي على نسق خفيّ قد يكون الأنا والآخر، فعدم الحياء من الآخر كأنّما هو إلغاء لوجوده، وعدم اكتراث له، وإن لم يكن ذلك بالمعنى السلبيّ، أو من جانب آخر أنّ حبّ الذات لنفسها يذوب أمامه الاكتراث للآخر والتفكير به، لا سيّما إذا ربطنا ذلك بالمعنى المعجمي لعتبة النص " عصر الحب" أو سياق الرواية العام الذي تظهر فيه شخصيّة" أم سيدة"، امرأة تبدو في ظاهرها خادمة لشخصيّة" عين" وناقلة لها الأخبار، ولكنها تحاول خفيةً أن تزوّج ابنها من" عزّت" الثري ابن السيّدة عين.

ولو تساءلنا: ما علاقة ذلك برمضان؟ لقلنا أنّ الذات قد ترتدّ إلى نفسها بكلّ حين ووقت، لا تعترف في الغالب بلحظة تتهذّب فيها من أناها العليا أو تتخلى عنها، وإن كان شهر التطهير والخشوع، إلاّ ما ندر، وهذا نسق متجذّر بالذات الإنسانيّة منذ الخليقة الأولى، ومتراكم بالوعي الفردي والجماعي، تؤكّده الرواية عبر شخصيّاتها ومسار أحداثها، وحتى زمانها وبقعة المكان التي تشكّل مسرح الأحداث.

---

[1] عصر الحب، نجيب محفوظ، د. ط، مكتبة مصر، د.ت، ص 16.

[2] نفسه، ص 19.

ويشير في الرواية إلى (ليلة القدر) فيقول: "**إنه في ليلة القدر من رمضان زارتها أمونة ساحبة بيدها صغيرتها إحسان ذات الأربعة أعوام، وعندما جلستا في (الفراندة) عقب الإفطار قالت لها عين برجاء: تجنبي ما يسبب لي الكدر..**"[1].

ويمكن أن نلمح في هذه المقاطع أنساقاً متعددة تتوارى خلف هذه المظاهر الرمضانية، لعل منها مثلاً: الهدوء، والراحة، والأكل، والشرب، والتفرغ للعبادة، وإن كنا قد نجد أنساقاً مضادة، وذلك بعد حديثه عن ليلة القدر حيث ألمح إلى تشاؤم بعض الشخصيات، وتعثر حظها. أو الكشف عن نسق غزا الشخصية، ونفث سمومه في المجتمع، فحيّد الشهر الفضيل عن مقصدة عند جمع من الناس، إذ أمسى شهر سهرات ولهو بما فيه ليلة القدر "**إنه في ليلة القدر من رمضان زارتها أمونة**" وهذا يضعنا أمام ثغرة ثقافية نستشفها من السرد، وإن ذكرت عارضة، أو لسياق معيّن.

وإذا انتقلنا إلى روايات أخرى فإننا نجد حضور ما يرتبط برمضان فيها جلياً، كالصوم مثلاً الذي يستعمله بعض الروائيين استعمال الشاهد، فمن ذلك مثلاً ما جاء في رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح الذي ظهر في توظيفه لشهر الصوم نسق التعب والضنى، يقول مثلاً: "**أذكرها؛ لأنني تجرعت غصصها كما يتجرع الصائم غصص شهر صوم قائظ**"[2]. وما هذا التشبيه الذي هطل على ذهن الكاتب دون غيره، وانتقته ذائقته بقناعة إلا أيديولوجيّته التي تملي عليه بهدوء دون أن تشعره بسطوتها.

ثالثاً – الأنساق المضمرة لدى الروائيين في مآلات رمضان ونهاياته:

وجدنا في رواية (رقص) لمعجب الزهراني ما يشير إلى أواخر شهر رمضان حيث يقول: "**اشتد عليه المرض فأركبوه في باخرة عادت به إلى هنا، وكم سعدت وهو ينتخبني لمرافقته، غادرت سايجون برفقة زوجتي، ويقينا أصدقاء إلى أن انتقل إلى رحمة ربه في آخر جمعة من شهر رمضان المبارك عام 1969 وهو حول الثمانين**"[3].

ففي هذا النص يوظف الكاتب نهاية شهر رمضان في مقابل بداية حياة جديدة لإحدى الشخصيات المهمة في الرواية، فجعل من نهاية الشهر، ووفاة تلك الشخصية بداية لعهد جديد مع زوجته، وهذا ما يؤكد عليه النقد الثقافي من كون المضمر نقيضاً ومضاداً للعلني[4].

---

[1] نفسه، ص 24 – 25.

[2] موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ط/13، دار العودة، بيروت، 1981م، ص 162.

[3] رقص، معجب الزهراني، ط/1، طوى للثقافة والنشر والإعلام، لندن، 2010م، ص 232.

[4] النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله محمد الغذامي، ص 78.

وتنحو أكثر الروايات العربية في توظيف نهايات شهر رمضان إلى ما بعده، وهو العيد، رمز السعادة والابتهاج، وفي ذلك نسق فرائحي يسلك مسلكين: الفرج بعد الشدة، والفرح بالتمام والكمال، ويمكن أن ننثر بعض المقاطع الروائية من قبيل ما جاء في رواية (فوضى الحواس) لأحلام مستغانمي، حيث نجد هذا النص: **"كنتُ أتمنى لو قضيتَ هذا اليوم معي، لا أفهم لماذا لا بد أن تقضي كل الأيام في مكتبك، حتى الأعياد .. كنت أقصد أننا لم نعد نلتقي أبداً، حتى العطل والأعياد أصبحنا نقضيها كل على حدة"**[1].

ويرد كثير من الروائيين بيت المتنبي الشهير:

عيد بأية حال عدت يا عيد / بما مضى أم لأمر فيك تجديدُ

يقدّم لنا هذا النصّ نسقاً مضمراً ربما يكون مفاده سطوة الحياة الماديّة، وهيمنتها على حياة الفرد، وهذا ما يقدمه الكاتب من خلال الحوار والمكان المغلق(المكتب) وعزلة الفرد وانفصاله عن الآخر، وكذلك عبر عنصر الزمان ودلالته (كلّ الأيام، حتى العطل والأعياد) والنص بهذه الصورة الرمادية– المنسجمة عناصرها أدبيّاً–يضمر أبعاداً اجتماعية ونفسيّة خطرة تحتاج إلى تصويب ونظر.

يقول منذر القباني في روايته (عودة الغائب) مورداً هذا البيت: **"ثلاثة أعياد قد مضت، ومع مرور كل عيد يتلاشى الأمل في العثور على دلال، أو ما تبقى منها.. كانت هدية العيد بالنسبة لجمال هذا العام مختلفة عن كل سابقيها في الأعوام الماضية، كانت هدية العيد هذا العام بالنسبة له، هي حياة جديدة في بلاد الأحلام"**[2].

الخاتمة

أصل معكم إلى نهاية هذه الورقة المتواضعة التي أرجو أن تكون فاتحة لبعض النوافذ النقدية، والثقافية، والحق أنني أكرر اعترافي بصعوبة الخوض في هذا العنوان من زاويتيه: الأدبية، والنقدية، ولكننا حاولنا الوقوف عند بعض النماذج، فوجدناها ملأى بالأنساق الثقافيّة القاتمة، يوقظها القارئ بعد تأمّل وتأويل، وهي في معظمها تنتمي للنسقين الاجتماعي والديني، ونزر يسير من السياسيّ والنّفسي، تظهر في النص الروائي وفق رؤية الكاتب أو راغمة، يفرضها اللاوعي ونسقه الثقافي الذي كان هو أصلاً صناعته وموجّهه.

---

[1] فوضى الحواس، أحلام مستغانمي، ط/4، نوفل، بيروت، 2015م، ص 176.

[2] عودة الغائب، منذر القباني، ط/5، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت – لبنان، 1433هـ/2013م، ص 28 – 29.

ونقول أيضاً إننا نأنس بالرأي القائل باتّحاد النقد الأدبي مع الثقافي، فصحيح أنّ جمال الأدبي يخفي أحياناً قبح الأنساق وبشاعتها، غير أنّ العين المتفحّصة يمكنها اصطياد الأنساق المتخفية والمنطبعة في ذهن الكاتب، وبالتالي فإنها قد تجعل النقد الأدبي مسانداً للنقد الثقافي، تماماً كما مرّ بنا في نموذج توظيف العاميّة الذي ساندنا في استخراج النسق الثقافي، وغيره من الأمثلة الوافرة في النص.

قائمة المراجع

- الزهراني، معجب (2010)، **رقص**، ط/1، طوى للثقافة والنشر والإعلام، لندن.
- الصانع، رجاء عبد الله (2007)، **بنات الرياض**، ط/7، دار الساقي، بيروت–لبنان.
- صالح، الطيّب (1981)، **موسم الهجرة إلى الشمال**، ط/13، دار العودة، بيروت–لبنان.
- عبد القدوس، إحسان. **في بيتنا رجل**، د. ط، مكتبة مصر، د.ت.
- عزيز ماضي، شكري (2020)، **مناهج النقد الأدبي مقدمات. نصوص**. تطبيقات، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت– لبنان.
- الغذامي، عبد الله محمد (2010)، **النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية**، ط/1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة–مصر.
- القباني، منذر(1433/2013هـ)، **عودة الغائب**، ط/5، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت–لبنان.
- محفوظ، نجيب (2007)، **خان الخليلي**، ط/2، دار الشروق، القاهرة–مصر.
- محفوظ، نجيب. عصر الحب، د. ط، مكتبة مصرة–القاهرة–مصر.
- مستغانمي، أحلام (2015)، **فوضى الحواس**، ط/4، نوفل، بيروت، لبنان.
- اليوسف، خالد أحمد (1442هـ/2012)، **سيرة حمى**، ط/1، مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع، الدمام–السعودية.
- يحيى علي، أحمد (2020)، **المبدع ورؤية العالم في الخطاب الروائي**، ط1، دار راشد للنشر، الفجيرة–دولة الإمارات العربية المتحدة.